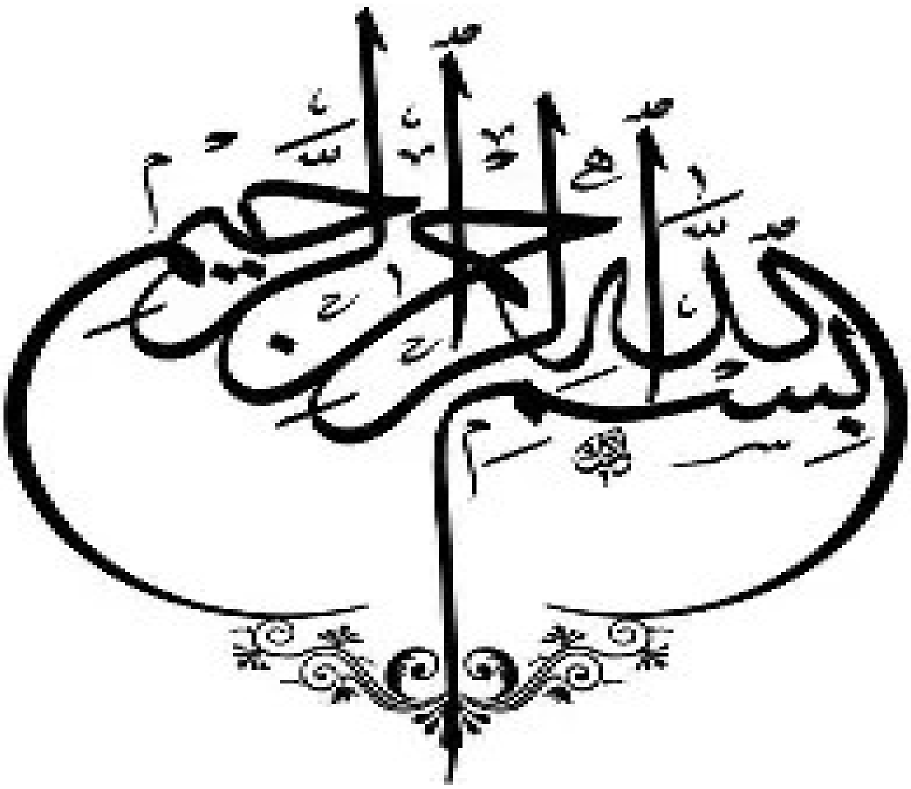
حفريات في مسار النبوّة

محمد بن عبد القادر الزغواني

2026


بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

إلى كل من يبحث عن سُبل النجاة

مدخل

قبل الترحال

كم نحتاج اليوم أن نغادر كلّ تلك الدعة والطمأنينة التي نتخفّى وراءها ونخادع النفس قبل الآخرين بها. كم نحتاج أن نقول في النفس قول الصدق، وفي أفكارنا ومعتقداتنا قول الصراحة والشجاعة. كم نحتاج أن نعيد ترتيب البيت، وأن نتخلّص من كلّ تلك " الكراكيب " التي يعجّ بها المكان، والتي تمنع الحركة وتضيّق على النفس، وتوهم بالامتلاء والثراء.

نعم نحتاج كلّ ذلك وأكثر؛

في ديننا نحتاج أن نعود القهقرى كي نضبط الألفاظ قبل أن نتبادل الأفكار.

نحتاج أن نتعلّم فنّ الاعتدال قبل اطمئنان الركوع، وتمام الاستقامة قبل مواضع السجود.

نحتاج تدقيق مخارج الحروف قبل البحث في الإدغام والقلقلة.

للأسف الدين يغادرنا ويعتزلنا في " معالمه ".

بيوت بنيناها بزعم إعلاء شان الدين، فإذا هي، بفعلنا وسوء تصرّفنا، استار وأسوار تحجب العقل وتمنع الشمس أن تعمّ المكان.

من أجل كلّ ذلك، ومن أجل غد نؤمن به، وجيل نراهن عليه، نحاول هنا أن نستعير من أبي القاسم الشابي فأسه، ومن الطاهر ابن عاشور " تدقيقاته وانظاره "كي ننظر فيما انبتت الأرض وما اخفت.

لا يكفي اليوم أن نقلّب الفكرة ونقنع بما يظهر منها، فقد تبيّنا أن العلّة قد امتدت إلى الجذور، واكتشفنا أن الوهن ليس هو دائما نتيجة.

لكن قبل البدء في حفريّاتنا وأنظارنا، من المفيد منهجيا وبيداغوجيّا، أن نجلّي جملة المنطلقات التي يتأسّس عليها نظرنا ويرتكز عليها حفرنا.

أوّلا، نحن نعتقد أنّ القرآن الكريم هو بالأساس كتاب منهج، ومقال طريقة في المعرفة والوجود. فهو عندنا يقود نحو جملة الضوابط والأسس التي ينبغي أن يعتمدها وينطلق منها الانسان في مسيرته. فهو مطلوبات ودليل استعمال يحتاجه الانسان في وجوده. لذلك نحن نذهب إلى أنّ القرآن ليس هو كتاب حقائق ومعلومات وتقريرات، فسياق القول على امتداد القرآن الكريم إشكالي البنية، ملغّز المعاني، مستفز الفكرة، ليست الحقائق، حتى العقدي منها، سوى مطايا للعبر والدروس، وللتأسيس أيضا. فالحقيقة فتنة الإنسان وشرط انسانيّته، أن يدركها بمنحة الأسماء التي وهب إيّاها. لذلك فما أُخفي عن الانسان من حقائق ليس تعجيزا له أن يبلغها، وإنّما هو استفزاز له، ودعوة مبطنّة للنظر وإعمال العقل. ليس هناك في الوجود مناطق ولا حقائق يُدفع دونها الانسان ويُدان ببحثه فيها. فالوجود، كلّ الوجود، مسخّر للإنسان كي يثبت من خلاله جدارته، ويحقّق عبره رسالته.

من هذا المنظور نقتحم حفريّاتنا في مسار النبوّة كما تشّكل وقدّم من خلال القرآن الكريم. قراءة في قصص الأنبياء، نريد أن نبلغ منها مقاصد السرد، وخفايا الإشارات، وموضع لبنة كلّ نبيّ في البناء.

القصص في القرآن ليس هو للتسليّة ولا للمزايدة على من جاء قبل، وإنما رجوع بالقصة إلى هدفها، وبالتاريخ إلى عبرته ورسالته. القصص هو سرد مراحل بناء الدين وتشييد الرسالة بين الناس.

ثانيا، نحن في أسفارنا تجاوزنا مربكات التفاصيل، وسحر العجيب الخلاب، وليس مرد ذلك دائما التشكيك في الثبوت، والطعن في الأسانيد، فمعركتنا لم تكن معركة حقائق، ومن يقدّم الصورة الصحيحة. فكما أسلفنا القرآن الكريم لم يكن كتاب حقائق ولا مدونة تاريخية، هو لا يلتفت للتفاصيل، وإنما يقود الأنظار والعقول نحو كليات الأحداث، ومقاصد المسارات. وكما سنكتشف، الكثير من القضايا الشائكة والمسائل الخلافية القرآن لا يبالي أن يتركها محل النزاع والتجاذب، دون قول فصل، حتى النبيّ صلى الله عليه وسلم كان منهجه في تربية الاتباع التركيز على ما تحتاجه اللحظة، وما يقود إليه القول من عمل.

لاحقا والأسوار ترتفع؛ أسوار الحروب، والولاءات، والمذاهب، سنُغرم بحواشي الكتاب، وأسماء الكلاب، وجنس الملائكة والجان. لتضيع المقاصد، ويتوارى النص خلف الحواشي، والمتن بين طيات أسانيد الرجال.

القصص القرآني، وكما سنتبيّن لاحقا، يؤسس لفلسفة التعايش، وقوانين التدافع. لم يكن الرسل أشجار زينة، استنبتت كي تتمم المشهد، هم من صلب تلك الأرض بعثوا، ومن مياهها ارتووا، ومن خلال صراعاتها برزت شخصيتهم واستبان دورهم، واتضحت رسالتهم.

لم تكن سيرهم، ملحة شخص، واسطورة قائد من خارج السياق، الكل كان يكابد واقعا، وينحت الصخر من أجل أمته.

لذلك قصصهم في القرآن ليست تعلي أصناما، وإنما تحيل على تجارب كي تُستلهم، وقوانين كي تُعرف وتُحترم. للأسف الغرق في التفاصيل يبعدنا عن كل ذلك، ولا يمنح إلا أحاديث للأسمار، ومطاعن للأغيار.

فنأسف إن لم يجد هواة " ألف ليلة وليلة " في عملنا الكثير من المتعة، والصور الخلّابة، ربما بعض الحيرة، والكثير من الأسئلة عن الراهن، وعن الذات كيف تختفي منا ونحن نتعقب الأسلاف.

من القصة إلى المسار

القصة في القرآن الكريم من أعقد وأخطر المضامين التي اشتغل عليها الوحي ووظفها في بناء وتشكيل الرسالة، وإن رأى فيها الكثيرون الجانب الأكثر سلاسة والأشد إبهارا.

طبعا نحن سنتجنب كل ذلك الجدل والصراع الذي دار بين أصحاب المدرسة الأدبية وأصحاب المدرسة التراثية، وإن كان ذلك التدافع المحمود مساعدا لنا في تلمّس زوايا نظر نزعم أنها ستمكّننا من أن نقرأ القصة ضمن المقصد العام الذي كانت من أجله.

كنا في محاولة سابقة[1] قد توقفنا عند مسألة نرى من الواجب هنا أن نذكّر بها لما تمثله من ركيزة أساسية في حديثنا حول القصص القرآني.

إنّ خاتمية الإسلام كانت من بين أهم الأسس التي شكّلت بنية القرآن الكريم، فتلك الخصيصة استتبعت عودة استقرائية لمسار الرسالة منذ آدم عليه السلام وصولا إلى سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، من أجل أن توضع (اللبنة) في مكانها الصحيح، وينظر لها ضمن عموم البيت، فكان القص من بين تلك الآليات.

والقصص القرآني، من هذا المنظور، يتجاوز أن يكون لمجرّد الاعتبار وتصحيح الحقائق. القرآن نفسه، وكما سنتبين لاحقا، لم يول مسألة (الحقيقة) والسيرة الذاتية لأبطال القصة كبير

[1] انظر كتابنا، **الخطاب الديني: قراءة في الأسس والآليات**، متوفي على الانترنات.

أهمية، حيث أبقى في كثير من الأحيان العديد من المسائل والتدقيقات طي الكتمان، ومجالا للجدل والتدافع، وذلك ما أبقى القصة الموضوع الأكثر جذبا واغراء.

طبعا نحن نجزم أن كل ذلك كان لمقاصد تأسيسية، منظورنا يمنحنا زوايا أوضح للوقوف عليها.

فعندما اختار الوحي أن يكون كتابه الأخير (القرآن الكريم) كتاب منهج وأسس إدارة الحياة، وتلك مسائل كنا في أكثر من مناسبة قد دللنا عليها بما لا مزيد عليه، برزت (الحقائق) كإغراءات ومقاصد، الإنسانُ هو من يعيد اكتشافها وكسوتها في كل حين.

" الرسالة ليست معركة حقائق "[1] مسلمة ننطلق منها في بناء منظورنا للدين عامة وليس فقط لقصصه. لذلك ما تثبّته القصة في القرآن ليس مجموعة من الحقائق والمعلومات تُبنى عليها جملة من المواعظ والدروس، وإنما هي (وقفات) مع الأنبياء والرسل من أجل سبر أغوار الرسالة وكشف مساراتها.

ولفظة (وقفات) نعتقد أنها أصدق تعبيرا عن حضور الأنبياء في القرآن الكريم من لفظة قصص. لأننا عندما ندقّق النظر في مجريات الأحداث التي يوردها القرآن خلال حديثه عن نبي من الأنبياء نلمس ذلك الحرص على ضبط الحوارات والوقوف عند المنعرجات. التفاصيل والشخصيات لا ترد إلا كتجسيد لحركات في المشهد، ومحامل لأقوال وتصوّرات.

[1] **الخطاب الديني: قراءة في الأسس والآليات**، ص،36.

الأفكار والأحداث هي جوهر القصّ، والمنعرجات هي ركيزة البناء. في كثير من الأحيان الشخصية تغيب وتتوارى خلف أقوالها وافعالها، والصورة تتحول إلى مشهد سنيمائي يعج بالحركة والرموز.

القصة في القرآن الكريم لا ترسم مشاهد، ولا تضبط شخصيات، إنها تدير فلما وثائقيا حيث يقع التركيز على ما وراء الصورة والمشهد، لا يهم من يقوم بالدور، أفعاله وأقواله هي ما تركز عليه العدسة. فالقصة القرآنية لا تطلب البعد النفسي لدى المتلقي وإن كانت العاطفة تحضر في خلفية الصورة، ولكن دون تشتيت للمتابع.

وتلك الحركية، في تقديري، هي التي كانت سبب الكثير من الارتباك والتناحر عندنا. فعندما ركز أغلب المتعرّضين للقصص القرآني على البعد النفسي للقصة، باعتباره محلّ الاعتبار والتدبر، كانت (المعلومة / الحقيقة) مدار الصراع؛ هل نقرأ القصة القرآنية كنص أدبي يسمح بكثير من التسامح والتجوّز، أم أنّ القصة القرآنية هي التجسيد التاريخي للرسالة، وبالتالي فأحداثها بكل تفاصيلها هي عين الحقيقة؟

جدل ومأزق نحن نتجاوزه عندما ننظر في القصص القرآني كمسارات ومنعرجات تسلكها الرسالة في طريقها نحو الإنسان كمقصد أساسي لخطاب الوحي. وبالتالي يكون النبيّ ولحظته، بكل تعقيداتها، مواقف يحط الخطاب عندها الرحال من أجل نصوص تُقرأ وحوارات يقع التدرّب عليها.

القصص القرآني اعتُبر عموما كاستراحة للعقل داخل النص، الحديقة الخلفية التي نستعين بها عند الاضطرار، ولا بأس أن نعبر من خلالها نحو الأجوار. التشريعات وحتى العقائد كانت تجد في القصة بعض المتنفس، والأسلحة لمقارعة الخصوم. فعندما يضيق المكان كان شرع من قبلنا يوفّر بعض المساحات. الشخصيات كانت مدار الحديث، والأحداث والحقائق ساحة التقاتل والمفاخرة.

لم ننتبه أن القرآن الكريم من خلال قصصه يعيد كتابة التاريخ بمقدّمة ليست خلدونية، وإنما بـ (تحقيقات وأنظار)، حيث يُقحَم (الإنسان / المتلقي) كعنصر أساسي لإعادة بناء الحبكة واكتشاف قوانين العمران والوجود عموم.

فالقرآن الكريم لم يُكتب في قلعة هادئة من أجل قوانين النجاح والفشل، لم يُكتب في صمت بعيدا عن ضجيج الحياة وفتنة الأهل والأصحاب. القرآن الكريم كان (صخب معركة)، وتقارير يومية عن اشغال الهدم والبناء. أزهار وأشواك، وأحجار قد بُعثرت تستصرخ الإنسان كي يُعيد بناء ذاته قبل بيته، والتعرّف على رجال، ونساء أيضا، من أجل القدوة ... والمساءلة. الأنبياء وقع تقديمهم كتجارب بشرية كانت لها أدوار حاسمة يمكن أن تتكرّر، بل يجب أن يُعاد بعثها وإحياء تجاربها من أجل الخلاص.

الوجود كما يُقدّم في القصص القرآني حالة حرب، لنقل: تدافع، حتى لا نُتهم بالتشاؤم، تلك كانت سنة الوجود وحقيقته. الكل يصارع من أجل البقاء والتكاثر. طبقات الأرض ذاتها تتدافع فيما بينها كي تعلي جبالا بها تثبت.

الأنبياء في قصصهم علامات تهدي السائر والمرتحل في هذه الرسالة. هم ليسوا شخوصا تُقضى بها الأسمار، وقصائد للتفاخر والتكبّر على الأمم.

كل نبيّ كان منعرجا وتجربة تعطي الرسالة دفقها، وقد تمنحها مسارات جديدة.

طبعا الأنبياء كانوا نوعا من الحضور للوحي في الواقع، ولكنه حضور ليس للتباهي ولكن لوصل ما انقطع، وتذكير بما وقع التغافل عنه.

الوحي يحضر من خلال النبيّ ليس لأخذ البيعة وتجديد الولاء، ولا حتى لكي ينتقم ممن بدّلوا وغيّروا، وإنّما لإعادة بعث الأسماء، والتذكير بالميثاق، والمسؤولية الملقاة على الإنسان كي يُثبت أن هذا العالم جدير بالحياة، وأن الإفساد ليس من طبيعة الإنسان.

بداية الوعي والمسؤوليّة حيال الوجود

طبعا البداية ستكون مع قصة سيدنا آدم عليه السلام التي لا ننظر لها ولا نتعامل معها باعتبارها قصة شخص أو شخصين، وإنما كقضيّة الإنسانيّة ورسالتها حيال الوجود. لأنّ الوجود مع آدم يحقق طفرته الكبرى، والمولى عزّ وجلّ يعلن في الملء الأعلى أنّ الأرض قد تهيّأت وتزيّنت لتستقبل السيّد والحاكم المفوّض الذي سيُعطى منذ اللحظة مقاليد السلطان وزمام الأمور. الأرض اليوم ملك يمين الإنسان قد استحلّها بما أعطي من الأسماء والصفات. لذلك عندما تنظر في قصة سيدنا أدم، كما وردت في القرآن الكريم، وتدقق النظر في كلّ تلك الأبعاد والاشارات التي تختلف من موضع إلى آخر، تدرك جيّدا أن القرآن يتجاوز (شخصنة القصة)، وكل ذلك العجيب الخلّاب الذي أغرم به أولئك الذين انساقوا وراء الإسرائيليات وأساطير البلدان المفتوحة. فالله { اصطفى آدم } [آل عمران:33]، كبداية عهد جديد وميلاد حاكم من طينة الأرض. فلا السماوات ولا الارض ولا الجبال تملك شروط ومؤهلات القيادة (العقل والروح)، لذلك هي رفضتها وأشفقت منها، رمز وتعبير ساحر من القرآن، قال تعالى ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ ۖ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ [الأحزاب:72].

الوجود يحتاج كائنا يملك بداخله جينة السيادة، ورغبة التجربة، وجرأة المعصية.

الوجود، هذا الخاضع لقوانين المدبّر الأعظم، هو اليوم بين يدي الإنسان. رهان، أنّ الحريّة والعقل هي منتهى حركة الوجود وغايته الكبرى.

قصة سيدنا آدم عليه السلام من الكثافة والرمزية ما يجعلها حمّلة أوجه، وغابة من الأشجار الكثيفة، أقرب ما تكون إلى المتاهة ومجموعة من الألغاز. وكلّ ذلك بمقاصد ليست تخفى. الحبكة وانقطاعات السرد وكثافة الحوارات وتداخل المشاهد، مع خط زمني كمومي، يقحم المكان في لعبة الزمان، كل ذلك يُضفي على القصة أبعادا ليست من القصّ في شيء.

آدم عليه السلام وزوجه كائنان ما في ذلك شك، وهما أبوا الإنسانية بمعانٍ متعدّدة يمكن أن تُقرأ بكثير من الحرية والتوسع اللامحدود.

القرآن الكريم ليس يبالي بكل تلك المساحات الشاسعة التي يتركها جرداء، غير ذات سياج، مغرية بكثير من الحرية في الرعي والغراسة.

قصة آدم عليه السلام أرض غير ذات حمى، عندها يتشابك عالمان منفصلان من حيث الخصائص والوظائف؛ عالم علوي وعالم السفلي، الأول تحكمه الطاعة المطلقة والتسليم المتناهي، والثاني فيه الكثير من الحرية والإرادة... والمعصية.

والعالمان كما يقدّمان في القصة قديمان قبل هذين الكائنين، لكن قدم العالم السفلي (الدنيا) غير منضبط، وقد يربك من يحاول أن يستلّ من القصة خطه الزمني.

طبعا لن نتوقف طويلا عند كل شجرة من أشجار هذه الغابة الكثيفة، فكل من حاول ذلك تعثرت خطاه، فليست هناك مسارات يمكن أن تطرق أو علامات منضبطة يمكن أن تشكّل خريطة عبور. لا اللغة، ولا الزمن السردي يساعد في رسم خط بياني، يضبط تراكم الأحداث، هناك تداخل في غاية الروعة بين الأحداث تجبرك على البحث في ما وراء الصورة، وما خلف الكلمة والحوار.

آدم وهو ينتقل في مسرح الأحداث، وبين عالمين مختلفين أشد الاختلاف، بفاعلية وحضور بارز في أحدهما، وباستسلام وانقياد تام في الآخر، يفتح الباب على مصرعيه لتعبر الرسالة من خلاله، وتُوظّفه أروع توظيف. فحضور الرسالة في هذه القصة يتم بمسمّيات عديدة تقبل الكثير من التأويل، وتحيل على قراءات متعددة؛

فهي **الاستخلاف**، قال تعالى ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾[البقرة:30].

وهي **الأسماء**، قال تعالى ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ﴾ [البقرة:31].

وهي قبل ذلك كله **روح الله**، قال تعالى ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي ﴾ [الحجر:29].

هذا الانفتاح نحن نراه طبيعيا جدا في مسار يستهل خطواته الأولى. فلحظة آدم هي لحظة بداية الرسالة، وليس فقط بداية (الإنسانية)، الوجود الإنساني في اعتقادنا هو محور الرسالة وجوهرها، لذلك نحن لا نميل إلى الرأي الذي يعتبر بداية الرسالة مع سيدنا نوح عليه السلام، موقف ينطلق من التشريع للواقع كمحدّد أساسي للرسالة، ويختزل الدين في منظومته التكليفية ببعديها التعبدي والمجتمعي !

طبعا القراءات ستفترق وتتناحر عند هذا المؤتمن على الأسماء كيف نقرأ دوره، هل هو مجرّد وسيط تعبره الرسالة؟ أم هو المعبّر الأول عن هذه الرسالة؟

جدل لن يتوقف خصوصا بعد أن أصبح الكلام اللعبة المحبّذة في الخطاب الديني، والرسالة شريعة بالأساس.

قصة آدم في تصوّرنا الشخصي أفضل تعبير عن ذلك التداخل العجيب الذي يؤسس له الوحي باعتباره رسالة هي جوهر حضور الإنسان في الوجود، والناطقة بهمومه وآماله. فآدم ليس مجرّد شخص، هو تحدٍّ ووظيفة، هو عالم برمّته يحاول أن يثبت جدارته ضمن شروط وجود قوامها التدافع.

إنسان أُسكن فضاء شاسعا ضمن قوانين صارمة لا تهادن ولا تستثني، وكل منحته شهوة لا تتوقف للحرية والمحاولة. لذلك فقصة آدم عليه السلام أشبه ما تكون بمراسم تتويج، حفل تنصيب، وإعلان ميثاق جديد.

آدم قد لا يكون نبيًّا بسيرة يمكن أن تُحكى ويُقتدى بها، ورسولا بشريعة تسوس الواقع وتضبطه، ولكنه اللحظة المفصلية التي رُفع فيها الستار عن قيمة الحرية والإرادة كعنصرين يقتحمان معركة الوجود الصاخبة. كان هو المعبّر الأول عن الوحي قبل أن تتكفل به مخلوقات من العالم السماوي.

آدم هو الوحي وهو النص، كما سيكون المسيح عليه السلام الكلمة. لذلك قصة آدم لا تُحكى وإنما تقرأ وتؤوّل.

غالبا يرتبط اسم آدم عليه السلام بالأرض باعتباره بداية الحياة، حياة فيها الروح والأمانة. نحن على العكس من ذلك، نزعم أنّ أدم عليه السلام مثّل نهاية دورة الطبيعة وافسادها، كما يبدو فعلها للناظر المنفصل عنها (الملائكة)، و تدشين مرحلة الوعي والمسؤوليّة داخل الوجود. الإفساد اليوم يقابله هبوط، والخيار كاشف للسوءة. الخطأ اليوم سيصبح معصية. الأسماء كما منحت آدم القدرة على المسك بالأشياء هي أيضا ستقوده للوعي بالجوع والعري والخصاصة. فالكلمة سيف ذو حدّين، بقدر ما تأخذ من الوجود تفضح وتكشف الذات وتعرّيها.

ابليس ما عاد اليوم من الملائكة، هو عنصر ثابت في معادلة الوجود، وشرط أساسي كي يثبت أن هذا الكائن جدير أو غير جدير بالخلافة.

قصّة آدم وحواء من أجمل السياقات التي قادنا نحوها القرآن الكريم من أجل فهم وادراك حقيقة الدين في الوجود، وروعة وظيفة الانسان في هذه الارض. كانت قصة جديرة أن تأخذ بأيدينا نحو فهم أعمق لذواتنا ولدورنا في الوجود. ولكن للأسف غرقنا في بحار من الاساطير والخرافات، وأهدرنا اعمارا نبحث عن الشجرة التي أكل منها آدم، و تقاتلنا حول من كان السبب في خروجنا من الجنّة؛ آدم أم حواء.

ولا نزال إلى اليوم نتنازع فيما بيننا، من نُدخل معنا الجنة يوم الحساب.

في قصّة آدم عليه السلام، الله أعلن أن الإنسان جدير بالثقة، وأنه قادر على التغلّب على افساده، وأكرمه برغم معصيته، أما نحن، برغم أنّنا نكرّر القصة كل يوم في صلواتنا مرارا عديدة، إلا أننا قد كفرنا بالإنسان ولم نر فيه غير معصيته.

حتى لا تنتصر الأسطورة

تعتبر قصة سيدنا نوح عليه السلام من بين أبرز الأمثلة، إن لم نقل أبرزها على الاطلاق، التي تبيّن وتفضح كيف استطاعت الأسطورة أن تخترق وتهيمن على الخطاب الديني، وتتحكم في مساراته، وتفرض عليه أنساقها ومنطقها. تقريبا 500 اسطورة عالمية تحدثت عن الطوفان، جعلت الفكر الديني ينتشي وينساق خلف مسارات العجيب الخلاّب. فبعد أن منح كلّ ذلك الإجماع العالمي القصة ثبوتا مقرّرا، فلا عيب من أن ينخرط الفكر الديني في رسم أبدع الصور وأغربها عن هذا النبيّ، وعن سفينته وطوفانه. وكأن رسالة نوح عليه السلام تتلخص في بناء سفينة واغراق الدنيا!

القرآن مقارنة بالتوراة على الأقل، كان استثناء، كان محاولة شديدة الوضوح لنزع كلّ ذلك الزيف والخرافة التي داخلت القصة، وقدّم للبشريّة المنظور السليم، والزاوية الصحيحة لقراءة القصة والاعتبار بها. لكن للأسف الكثير والكثير جدا من قصّاصنا ومفسرينا وقعوا فريسة كل ذلك السحر والإغراء الذي يحيط بالرواية التوراتيّة، والتي كانت المعبر الذي دخلت من خلاله كلّ تلك الأساطير فكرنا وثقافتنا. لنجد أنفسنا غارقين في متاهات الروايات، والتفاصيل التي أربكت الخطى وأحرجت النظّار.

لكن كيف وقع ذلك ؟

عندما يصبح الدين مجرّد تسليم وبحث عن اليقين والمطلق الثابت، وعندما يُختزل دور الدين والرسالات في تقديم الأجوبة النهائية والإحصائيّات التفصيلية عن أحداث التاريخ، وعندما يكفّ السؤال، وتتوقف الحيرة عن تغذية الإيمان وبعث الحياة فيه، عندما يختزل الإيمان في كلّ ذلك ويُقحم في مثل تلك المعابر الضيّقة، يكون المأزق الذي نعيش، والعجز الذي نتخبط فيه، دين نفقد اثره فينا، وخطاب يقصينا عنه، وفكر يغتال العقل منا، دين يفقد بشريته كل يوم، وكأن قدر الإنسان أن يُحرم الحضور بدعوى أن الدين فعل الله في الوجود، والإنسان ما عليه سوى الاستسلام والطاعة والخضوع.

قصة نوح عليه السلام، كما نزعم، وكما ألمحنا في مستهلّ القول، تكشف المسار الخاطئ الذي انجرف فيه الفكر الديني. الإسلام كان ولا بد أن يقود إلى الإستثناء باعتباره خاتمة المطاف وتمام البناء، إذ كان يمثل النسخة المعدّلة " الرسالة الذكية " SMART MESSAGE التي بمقدورها أن تطوّر من نفسها ومن خطاباتها من غير حاجة للمفارق (الوحي).

الاسلام كان يمتلك كل آليات البناء والتأسيس باعتباره منهج وحركة عقل ووعي في الوجود. لذلك والوحي يعيد تشكيل مفهوم التوحيد بما يتناسب وكل التراكمات التي تحققت نتيجة التطوّر الاجتماعي والسياسي الذي عرفته البشرية، كانت هناك معارك حاسمة انخرط فيها منذ بداياته. معارك أشبه ما تكون بتثبيت تطبيقات وأسس هي شروط الحياة والحركة داخل هذه " الرسالة الذكيّة ". ولعلّ من أبرز المعارك، إن لم نقل أبرزها على الإطلاق، معركته مع الأسطورة.

لذلك نجد القرآن في تسع مناسبات يشير الى تلك التهمة التي كانت توجّه الى الرسول وإلى الوحي عموما باعتباره " أساطير الأوّلين ".

في تصوّرنا، الملمح كان شديد الوضوح، والإشارة هي للاتباع قبل المخالفين، النص المسطور والمبين يجب أن يبقى بعيدا عن كل تلك الأساطير التي استطاعت أن تخترق الكتب السابقة وتنال منها. الإسلام يدرك جيدا أن أخطر مرض يمكن أن يصيب الدين في مقتل هو المصالحة والانسجام مع الأسطورة.

والمدخل الأساسي الذي من خلاله عبرت الأساطير الى متون الكتب السماويّة السابقة هي الحكايات والتأريخ. لذلك تعامل القرآن الكريم مع قصص الأوّلين في حدود ضيّقة جدا مركّزا على العبرة والعظة. كلّ تلك التفاصيل التي أغرقت التوراة في متاهات الخرافة قفز عليها القرآن وحذّر منها في أكثر من مناسبة ونبّه إلى خطورتها. الأسطورة باعتبارها " حكاية البدايات " اغتيال للعقل ولدور الانسان في الوجود، فالبدايات تدرك بالسير في الأرض والنظر والبحث، قال تعالى ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ۚ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [العنكبوت:20].

الأسطورة مصادرة للفعل والنظر ووقوع في الأسر؛ أسر الأولين، والآباء، والأحبار، والقصّاص. وذلك هو بالضبط الضد والمقابل لجوهر رسالة الدين التي هي نظر وإعمال عقل في الوجود.

للأسف استطاعت الأساطير أن تخترق حتّى كتابنا العزيز وذلك بتلك الرغبة التي سكنت القصّاص، ثم انتقلت إلى الكثير من المفسرين بدعوى أنّ الرسول الكريم رفع عنّا الحرج في

أن ننقل عن بني إسرائيل. اليوم، وكما هو بيّن، نجد صعوبة في اختراق كل تلك الطبقات من الروايات والآثار والخرافات التي نسجت حول تلك الآيات الرائعة التي اعادة صياغة قصة سيدنا نوحا مخلّصة إيّاها من كلّ ما ألحقته بها الأساطير.

قصة شديدة الوضوح، بسيطة الأحداث باعتبارها **تحكي بدايات تشكّل الدين داخل القوم:**

*/ ﴿ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ **قَوۡمِهِۦٓ** أَنۡ أَنذِرۡ قَوۡمَكَ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴾ [نوح:1].

*/ ﴿ قَالَ **يَٰقَوۡمِ** إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ﴾ [نوح:2].

*/ ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوۡتُ **قَوۡمِي** لَيۡلٗا وَنَهَارٗا ﴾ [نوح:5].

فالمتأمّل في تواتر لفظة (قوم) في سياق قصة نوح عليه السلام يدرك مغزى حديثنا. فالاجتماع البشري بلغ من النضج والتطور ما أصبحت معه هموم الوحي تتجاوز ما كان سابقا مع آدم، الإنسان الفرد. اليوم الإنسان قد اندمج داخل مجموعات متجاوزا فرديّته، وحتّى رابطة الأسرة الضيّقة. اليوم هناك (القوم) مجموعة من الناس مترابطة بمصالح وعلاقات، الشيء الذي سيفرز ولا بد تصنيفات وطبقات. تلك في تصوّرنا جوهر رسالة نوح عليه السلام وبداية الدين " كرسالة داخل المجتمع ".

الدين مع آدم كان لتثبيت الوعي والمسؤولية حيال الوجود، مع نوح هناك خطوة جديدة ورسالة يجب أن تعلم، المجتمع كي يستمر ويحافظ على قوامه يجب أن يتأسّس على التوحيد باعتباره الضمانة الوحيدة حتى لا ينتشر الكبر والظلم داخل المجتمع.

إن ربط التوحيد والعبادة، بالتقوى هي المسألة الجوهريّة التي دعا إليها نوح دون الدخول في تفاصيل طقسية شعائرية، قال تعالى ﴿ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ * يَغۡفِرۡ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ وَيُؤَخِّرۡكُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّىۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُۚ لَوۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴾ [نوح:4/3].

بل أكثر من ذلك تصبح الاستقامة والصلة الصحيحة مع الخالق سببا لرغد العيش، قال تعالى ﴿ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا * وَيُمۡدِدۡكُم بِأَمۡوَٰلٖ وَبَنِينَ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ جَنَّٰتٖ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ أَنۡهَٰرٗا ﴾ [نوح:12/11].

فكما أسلفنا رسالة نوح عليه السلام كانت في غاية البساطة، عبادة الإله الواحد، والتقوى، والابتعاد عن ثنائيّة الملأ والأرذلون التي يبدو أنها أصبحت السمة التي يتأسس عليها المجتمع في زمن نوح.

طبعا العقوبة، أو ما نحبذ تسميته بمآلات الانحراف، كان ولا بد أن تكون نتيجة حتمية لنوعية المرض الذي أصاب القوم، طوفان يغرق القوم باعتبارهم قد رفضوا أن يستمعوا لكل التحذير والتنبيه الذي جاءهم به أخوهم نوح، رفض وسخريّة يتأسّسان على الكبر والتعالي، فهو لا يملك أي ميزة عليهم. الملائكة فقط يمكن لها تأمرهم فيطيعوا، أمّا هو فلا طاعة له عليهم.

إن رفض " بشريّة " النبيّ والمصلح هي الحجّة والتعلّة التي تخفّى خلفها اتباع نوح لكي يؤبّدوا سلطتهم ويكرّسوا تعاليهم داخل المجتمع. وهي للأسف نفس " الخدعة " التي سيستعملها (الملأ) في كلّ مكان وزمان. خدعة تتأسس على ما قاله الأولون والآباء، بكل بساطة ما تقوله الأساطير. لذلك قلنا: إنّ الاساطير هي قاتلة الدين، ومكذّبة الأنبياء.

قصة نوح كانت بداية الحرب ضد الأسطورة وهي في تشكّلاتها الأولى، لكن كما استطاع إبليس أن يصعد في سفينة نوح نتيجة عناد الحمار فكذلك استطاعت الأساطير والإسرائيليات أن تخترق الكثير والكثير جدا من كتب التفاسير نتيجة طباع ما كنّا نحسب أنّها تكون في قوم أنزل عليهم القرآن.

نوح عليه السلام إشكال قبل أن يكون قصة، أسئلة واستفزازات أكثر منها سيرة وحكايات. صبر وإصرار لا شبيه له، ثم غضب ونقمة، ولعنات لا تستثني حتى الديار، ﴿ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴾ [نوح:26].

نوح يخترق كل الحضارات القديمة يتخلل أساطيرها يتحدى الزمان والمكان. فهو **زيوسودرا**، في الأسطورة السومرية، وهو **أوتنابيشتيم** في ملحمة جلجامش، وهو **ديوكاليون** و**بيرا** في الأسطورة اليونانية، وهو **مانو** في الأسطورة الهندية، وهو **يو العظيم** في الأسطورة الصينية وهو **نوح** في التوراة والقرآن، وهو في كل تلك القصص المنقذ، المنذر بلغة القرآن، لقومه من تبعات ضجيجهم، وافسادهم، وكفرهم.

القرآن الكريم كعادته في قصصه يتجاوز كل تلك الحيرة مبقيا الأبواب مفتوحة، والسؤال قائما. فالقرآن لا يخاف الأسئلة، ولا يدين الحيرة بل بالعكس يراهما طريقا النجاة، وتحقيق الإنسانية. طبعا نحن لن ندع الأساطير توقعنا في حبائل سحرها، بعض المقاربات ربما. الوحي حاسم جدا حيال تلك المسألة، كما أسلفنا. أن تتبع الأساطير قافلته، وأن تأخذ ﴿ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ

الرَّسُولِ ﴾ [طه:96]، فهو لا يمانع، أما أن تداخل قوله فلا سبيل إلى ذلك، فهو حيال هذا الأمر شديد الحسم والغضب، ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ * لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴾ [الحاقة:44-47].

عند قصة نوح الأمر كما وقفنا عليه عند آدم عليه السلام، لا تفاصيل تشفي الغليل، وتفحم كل تلك الإسرائيليات المخجلة. رجل عنيد في مواجهة عائلة مشاكسة سيتحمّل وزرها حتى بعد الطوفان. الصحب والأتباع محيّرون، حتّى لو يمّمت وجهك شطر الأساطير، لن تظفر بقائمة متجانسة. ففي هذه القصة الحيوانات تشارك الملحمة، وتدين الإنسان. لذلك يبدو أن الخطب جلل، والإزعاج ما عاد يطاق، والكبر قد استشرى بين القوم، وذلك فيما نحسب عقدة القصة، والمغزى من الرواية. فالإنسان يبدو أن الخطى قد جرفته بعيدا عن حدود انسانيته، وأنسته أنه من طينة الأرض قد خلق.

نوح خصم عنيد، ذو إصرار وبصيرة، يعلم جيدا أنه حيال لحظة فاصلة، طبعا ليس كما تقول الأسطورة الهندية: نهاية دورة كونية (براكليانا)، والدعوة تتجاوز مجرّد ﴿ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [نوح:1]، هو ليس مجرّد بطل تقوده سمكة، ولا حتى أمنياتٌ رحيمة لينقذ الناس من الهلاك، كلا، هناك حقيقة يعرضها نوح، وبداية تضعها الرسالة في مستهل سفرتها.

التفاصيل، نوح لا يخوض فيها، ربما لأن أوانها لم يحن بعد، هي الأساسات ترتفع لتضع الإنسان في مواجهة مسؤولياته حيال الوجود. فإمّا أن يتخذ من تلك الأساسات سدودا تحوّل

ما ترسله السماء ﴿ جَنَّاتٍ ﴾ و ﴿ أَنْهَارًا ﴾، أو هو الطوفان، وحينئذ ﴿ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ﴾ [هود:43].

قصة نوح، كما أسلفنا، تُقدّم كنقطة تحوّل، لحظة مراجعة وتأمل، تبدو، لو اعتمدنا التأريخ المتداول، مبكرة جدا، ومربكة كثيرا، لأن قراءتها بما بعدها يحيل على أكثر من سؤال، حتى مع فرض الطوفان الجزئي. هناك حدّة، وتشنّج كبير في خطاب نوح، وحسم واضح من قبل الرسالة. لا شفاعات ولا ترضيات. من لا يستجيب للدعوة، ﴿ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ﴾ [نوح:3]، سيغرق، لا استثناء. كل ذلك يجعلنا في حاجة ماسة إلى النظر في التحقيب الزمني بكثير من الحيطة. نحن هنا أمام خيارين؛

إما أن نعيد دمج القصة القرآنية في الأساطير العالمية ومحاولة استكشاف خط زمني يبرّر (نقطة التحول) تلك، أو أن نقرأ كل ذلك الحزم بخصائص وكليات تكشف عنها الرسالة. خصائص تتعلق بالأساس باستراتيجيات التنزّل والتعامل مع الواقع، وذلك ما نذهب إليه، ونرتضيه قراءة.

القرآن لا يتحدث عن أنبياء بين سيدنا نوح وسيدنا آدم عليهما السلام. وبغض النظر عن البعد الزمني، الصرامة لا يمكن أن نقرأها كرد فعل متوقع عن ذلك الانحراف. لذلك نحن نعتقد أن نوح أقرب دورا إلى آدم ممن سيلحق به من الأنبياء. فعنده تكشف الرسالة في وضوح عن صرامتها حيال خيارات الإنسان.

ربما كانت قصة آدم بكل التسامح والاحتفاء بذلك البطل قد رسمت صورة مُطمعة في العصيان، وفتحت الباب نحو نوع من الكبر سيجد طريقه نحو الإنسان، فكان نوح والطوفان المسكة الخفيفة، ولكن المؤلمة، لأذن الصبي كي يعلم أن غضب الأب عنيف. السجود كان حفل الاستقبال ومراسم التتويج، أم الطوفان فكان التحذير من التمادي في العصيان.

فقصة نوح إذن تؤسّس للطريق الواجب اتباعها، وللرسالة القراءة المتحتم أخذها في الاعتبار. هناك مساحات شاسعة من الجنان للسير والتجوال، وأشجار كثيرة للاختبار، لكن ليكن في الحسبان أن هناك أماكن تبديل الخطو فيها مكلف، وأشجار تذوقها قد يورد المهالك.

الرسالة تكشف أوراقها في وضوح، وتضع الإنسان أمام مسؤوليته، تكرار احتجناه، كي نبين كل الصرامة التي يقدّم بها الطوفان كإجابة حازمة.

نوح عليه السلام رسول، بل ومن أولي العزم من الرسل، ليس بشريعة دقيقة تضبط سلوك الإنسان وتنظم حركته في المجموعة، وإنما هو استحق تلك الصفة بشرعة واضحة خطّها في قومه، تحدد مسارات الإنسان وتعطي القوم الشعب السوية للتعايش.

حيال هذا المقصد العميق تصبح التفاصيل غير ذات بال، بل ربما مربكة، حتى تلك التي يطلبها الإله لذاته. هو الإنسان يجب أن يعلم حدوده حتى لا يبعده التفاخر والتعالي عن بقية الموجودات، والضعاف من جنسه، ويلقي به خارج شواطئه الآمنة. فحتى الجبال ليست تحميه عندما ترتفع الأمواج.

لفظة (القوم)، كما أسلفنا سابقا، يمكن اعتبارها المفتاح لكثير من مغلقات القصة وأحجياتها. الاجتماع معطى في غاية الأهمية. ربما كان المبرّر الأقوى لكل تلك الصرامة في تعاطي الرسالة مع تلك اللحظة.

فالتعالي والكبر، ومحاولة فرض ثنائية (الملأ / الأراذل)، ﴿ قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ﴾ [الشعراء:111]، ضرب في الصميم لجوهر الرسالة، على اعتبار أنّ (الإنسانية) هي الشرط الأساسي والضامن لنجاح تجربة الاستخلاف. الانحطاط عن رتبتها سقوط في الطينة الآسنة، ومحاولة التعالي على المماثل والشريك كبر وادعاءات باطلة، ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ ﴾ [المؤمنون:24].

لذلك نحن لا نميل إلى القراءة التي يقدمها الدكتور شحرور للحضور المكثفة للفظة (الملائكة) في الحوارات الدائرة بين نوح عليه السلام والملأ من قومه. حيث لا نعتقد أن قبل نوح كان النُذر من جنس الملائكة، وأن نوح عليه السلام كان أول البشر المرسلين. إذ نزعم أنها من جنس تلك الاعتراضات التي ستتكرر على ألسنة كل الذين وقفوا في وجه الأنبياء والمرسلين. القرآن كان حاسما حيال تلك المسألة؛ الرسالة حمل الإنسان ومسؤوليته، قال تعالى ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾ [الأنعام:9].

الملائكة منذ اللحظات الأولى من التجربة كانوا خارج المعادلة، الأسماء كانت فوق طاقتهم، والإفساد معطى لا يستطيعون التعامل معه، ﴿لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم:6].

الاجتماع معطى حاسم يقتحم المعادلة. لم تعد فتنة الانسان أشجار يجب أن يحسن الاختيار بينها، وإنما هي أفراد وعلاقات يجب أن يتعلم حيالها فن التعايش وآداب المشاركة.

الإنسان لا يحتاج ملائكة تسوسه، و " الأراذل " تهمة وليست رتبة، الأفعال فقط هي من تثبتها أو تنفيها، ﴿ قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [الشعراء:112].

يبدو أن نوح عليه السلام قد احتاج الكثير من الوقت والصبر كي يقيم الحجة، ويثبت صحة المعادلة؛ الكبر لا يُحقّق المكانة ولا الرفعة، وإنما هو الغرق. والقصة كانت نهاية مرحلة وبداية أخرى، لذلك كان الحسم، كي يكون القوم على بصيرة. فليست كل الذنوب تمحوها بعض الكلمات، ﴿ فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ﴾ [البقرة:37]، فبعض الذنوب، خصوصا تلك التي تمس أساس العيش المشترك، تحتاج سيولا وأمواجا عاتية تمحو كل تلك الآثار.

الحوار أساس الملّة

أبا، وإماما، وأمّة، كذلك كان إبراهيم ولا يزال عند أتباع الأديان السماوية. لذلك لكم يبدو جديرا بنا أن يكون تعاملنا مع هذه الشخصيّة تعاملا دقيقا وعميقا. فإبراهيم عليه السلام ليس هو مجرّد رسول على فترة من الرسل، ولا نبيّا عابرا في مسار النبوّة، بُعث كي يكتب اسطرا في كتاب النبوّة ويضيف شرعة في منهاج الرسالة. ولا يكفي أن نقول إنّه من أولي العزم من الرسل حتّى نوفيه حقّه. فإبراهيم كما تقرأه في التوراة، وفي القرآن خصوصا، شخصيّة محوريّة، كلّ اللاحق من الأنبياء والمرسلين مرتبطون به لامحالة، وعلى خطاه ساروا. فإبراهيم إلى جانب كونه قدوة وأبا، هو كذلك مؤسس لفكرة، وواضع لمنهج، ورافع لقواعد. فالدين مع ابراهيم بدأ في التأسيس لذاته و " رفع قواعد بيته ". ما قاله نوح وصرّح به (انظر قصة نوح عليه السلام) سيثبّته ابراهيم على الأرض بمنهج يؤسس الفكرة ويقيمها بين الملإ والأتباع، وببيت يثوب إليه الإنسان حتّى لا ترهقه الأسفار. إبراهيم كان إماما باعتباره المؤسّس لمنهج الدين في التواصل مع الذات قبل الآخرين، ومع المخالفين قبل الأتباع. تواصل أساسه حوار يعلي مكانة السؤال ولا يتهيّبه ولا يرفضه مهما كانت جرأته. وهو كذلك القائد الواضع لقواعد البيت كمنطلق لبناء منظومة الشعائر التي يحتاجها الإنسان قبل الدين. يحتاجها المؤمن حتى يحسن فهم عقائده وأفكاره، والاستفادة منها.

فالمدقق في سيرة هذا الرجل العظيم يلمح ظاهرة شديدة البروز. حيرة تطبع شخصيّته، وثورة عارمة تسكن مواقفه وأفكاره. السؤال ليس يخيفه البتة، بل بالعكس يحركه ويقوده إلى دقيق المسائل وجليلها. يسأل عن المعبود الحق؛

كيف ينبغي أن يكون وما هي صفاته؟

هل يجوز أن يأفل أو أن يوجد من هو أكبر منه؟

وعن القدرة، هو لا يتحرّج أن يطلب الكيف؟

أسئلة تبدو بسيطة، حجاجية المقصد، تقيم على الناس الحجّة، ولكنّها في عمقها وجوهرها تبني المنهج الذي سيتأسس عليه الدين، ويضع من خلاله في الناس شرعته. هو الحوار شرط المعرفة وأساس التواصل. حوار مع الذات، بحثا عن المعبود الحق، ﴿ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي ۖ فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴾ [الأنعام:77]، وحوار مع الفكرة بحثا عن اليقين، ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [البقرة:260] ، وحوار مع المخالفين، ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ﴾ [الشعراء:70]، بحثا عن التواصل والإقناع والتأثير، وحوار مع الذي ﴿ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ ﴾ [البقرة:258]، بحثا عن إقامة الحجّة والإلزام بالدليل. فأينما يمّمت وجهك في سيرة هذا الأوّاه المنيب تجد " الحوار " هو المنهج والسبيل الذي ترتفع فوقه بناية الدين وتشق طريقها في النفوس.

فكرّ الأيام أثبت أن الوعي والإدراك الذي " نُفخ " في ذلك الكائن الذي لم يكن شيئا مذكورا، ليس يثبت عنده. فهذا الكائن العنيد الخطّاء، ما أسرع ما تحوّل الوعي بداخله إلى وثوقيّة وبلادة في النظر وانحراف في السلوك، لذلك احتاج أداة تحرّك مياه الأسماء حتى لا تأسن، وتهشّ على المسؤوليّة حتّى لا تصبح كبرا واستعلاء. تلك الأداة هي السؤال. والسؤال مع جوابه يبني الحوار، منهج الدين في صون الوعي والإدراك من الابتذال والتحجّر.

إبراهيم عليه السلام كان ذلك المنهج والطريقة في إدراك الحقيقة وتنزيلها في الواقع. حتّى أنّه وهو يبني للناس شعائرهم ويضع لهم القواعد لا يحيد عن الحوار والسؤال، ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ﴾ [الصافات:102]، الطاعة، وهي أساس وجوهر الشعيرة، ليست تنفي، ولا تمنع طلب الفهم والإقتناع، وليست هي تدين الحيرة والتلجلج. حرارة الإيمان ليست في التسليم والخضوع المطلق، وإنما في ذلك الجدل والثورة التي تسكن المؤمن طلبا لحياة الفكرة وإثمارها، التسليم الأعمى والخضوع المطلق موت للفكرة وخصي للإيمان. ذلك في تصوّري ما يجب أن نستحضره من سيرة ذلك المحاور العنيد والمجادل حتّى في أمر ربّه.

الملة مع إبراهيم تكشّفت عن الأسس والضوابط التي ينبغي أن تسير بها بين العالمين سواء مع من قبلها أو مع من رفضها. فالملّة منهج تواصل، وحوار أساسه الرحمة والرأفة بالناس والأخذ بيدهم نحو الدليل والحجّة والبرهان، وهي كذلك قواعد بيت يثوب إليه الناس ويأمنون فيه ويُرزقون.

للأسف الأبناء سريعا ما بدّلوا وغيّروا بزعم أنّهم من الذرّيّة المختارة، وأعلوا للبيت جدرانه حتّى ما عاد يقدر أن يلجه أحد أو أن تُدرك أبعاده، فالإيمان ما قاله المختارون، والشعائر تبع لما انتقاه من الدين الأبناء.

إبراهيم عليه السلام، كما أسلفنا، هو أب الأنبياء، وهو صاحب البيت ورافع القواعد، مكانة لا يدانيه فيها أحد، الكل من عنده يبدأ لا أحد يجادل في مكانته، مراحل حياته معلومة، وإن داخلتها الكثير من التفاصيل المربكة. القرآن كعادته لا يبالي بكل ذلك ويحافظ على صورة تخدم المقاصد.

تفاصيل العائلة؛ كاسم الأب، وتحديد الابن الذبيح، لا تهم، القرآن لا يحبذ الحروب الجانبية، هكذا يبدع الشيخ ابن عاشور في قراءة المسألة.

يكفي أن نعلم أن التحدي كان ميزة الفتى، ﴿ قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ﴾ [الأنبياء:60]، والصرامة كانت خصيصة الزوج والأب، والترحال الخيار والأسلوب في بناء المسارات. ما بدأ شكا في أوائل الطريق، ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ ﴾ [البقرة:260]، أصبح يقينا وثباتا لاحقا، ﴿ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ ﴾ [الصافات: 102].

زوج عطوف يراعي مشاعر زوجته، ولكنه عندما تتقاطع الرسالة مع حياته الشخصية لن يتردد أن يترك زوجته وابنه الرضيع، ﴿ بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ ﴾ [إبراهيم:37]. إذ يبدو أن الرؤية كانت واضحة جدا، وإن كانت في أغلبها رؤى وتقديرات صائبة. إبراهيم كان يدرك أنه يخط طريقا ذا

شرعتين مختلفتين، لذلك باعد بينهما، وجعل بعض الحواجز؛ شرعة اختارت الدم كرباط وصل، وللمفاخرة والاستعلاء لاحقا، وشرعة جعلت من البيت أساس وحدتها، وطريقها نحو الجد.

أحفاد سارة يبدو أنهم ورثوا عنها غيرتها المفرطة، ومن دهاء أم يعقوب وتعلقها الشديد بابنها، رسموا لأنفسهم نهجا للسير، وخصيصة للمعتقد.

إبراهيم طبعا لن يكون شاهدا على كل ذلك، ولكن بحكمته وحلمه استطاع أن يمنح الأبناء كليات جامعة لمقاصد الرسالة، ومانعة للتشرذم والتناحر. القرآن الكريم سيركز في مختلف وقفاته عند قصة سيدنا إبراهيم على تلك الكليات.

الدين كما تتشكل صورته مع الإسلام يتجاوز ثنائية الدم والبيت، الإنسان هو ركيزة البناء، والحوار أساس التعايش، الدم معطى لا يُنكر، ولكنه غير معتبر في التفاضل، والبيت مجرّد قبلة للوحدة، ومواجهة الفرقة والتناحر.

المواجهة خيار قائم، ولكن الحوار والتعايش نهج ثابت وطريق موصلة، والأمل يبقى دائما موجود حيال انحرافات الإنسان، فلا حرج من الاعتراض حتى على ملائكة العذاب. إبراهيم عليه السلام فعل ذلك، فاستحق بكل فخر أن يوصف بأنه ﴿ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ ﴾ [هود:75]. لكن حكمة الشيخوخة لم تستطع أن تلغي اندفاعة الشاب الغيور على معبوده، خصوصا بعد أن أثبتته الحجج والتجارب المبصرة. يقين صهرته الحيرة، وثبات راسخ دعائمه الأسئلة.

القرآن الكريم وهو يرسم إبراهيم يتجاوز الشخص نحو الفكرة، ويركز على المنهج قبل الحقيقة.

في الوجود القرآن يعود إلى لحظة آدم عليه السلام كبداية لمسؤولية الإنسان حيال الوجود، الرسالة مع إبراهيم تأخذ أبعادها الكبرى وتُجلّي مساراتها، وتختار شعارها: الإسلام، ﴿ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [آل عمران:67]. الحرية لا تعني الفوضى، والتعايش يرفض الكبر، والإيمان لا يصادر البتة حق الحيرة والسؤال. إبراهيم خاض أصعب الامتحانات كي ينال شرف الخلة؛ نار موقدة، والتضحية بصبي بلغ السعي، أي فؤاد يثبت لو لم يكن قد أسلم بكلّيته إلى رب ليس من الآفلين.

قصة إبراهيم عليه السلام ملحمة وجود، وأسطورة إنسان استحق أن يكون أمة بمفرده، ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [النحل:120].

النبوّة خدمة لقضايا الإنسان

﴿ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ ﴾ [طه: 47]}، ذلك كان عنوان ومنطلق رسالة موسى عليه السلام، قضيّة أمّة، وقصة شعب مضطهد. الرسول يختار جانب قومه، مضحّيا بالمكانة والمنعة، ويقرّر نصرة شعبه اعترافا بالجميل، واستجابة لنداء الاستغاثة. فالشعب كان وجوده وكانت معاناته كنوع من الإرهاص بمقدم النبي موسى عليه السلام. لذلك سيكرّس هذا " الطريد " حياته وسيوظف رسالته من أجل بناء الأمة والانتصار لقضاياها. حتّى التوحيد، ومفهوم الإله، الذي كافح ابراهيم عليه السلام طويلا من أجل بناء تصور وتمثّل نقيّ له، سيكتشف هذا " القوي الأمين" أنّ مع المجموعة والشعب، المسألة أكثر تعقيدا وتشعّبا، والمفهوم يحتاج الكثير من " النسخ " و الخضوع لإكراهات الواقع ونزوات الأتباع.

قصة موسى عليه السلام، وأنت تضعها في سياق وخيار البعد الاجتماعي الذي يتبنّاه الدين، تكشف مدى التعقيد والهشاشة التي يتسم بها الاجتماع الإنساني في التقبّل والتفاعل مع مفاهيم والتزامات التوحيد. هنا تكمن إشكاليّة النبوّة مع موسى عليه السلام: المفهوم وتمثّلاته، تفاعلا مع شروط الاجتماع.

القضيّة الأولى التي ينطلق منها الدين ويوظفها في تنزّلاته هي: **كيف يمكن أن يشكّل الدين خيار تحرّر ومقاومة.** موسى عليه السلام كان الفعل والحركة خياره الأوّل في التأسيس. الفكرة تطلب مسارا تتنزّل من خلاله، والمجموعة تحتاج الترحال كي تبنى ويشتد عودها، والتحرّر في جوهره وحقيقته مغادرة لشروط الاستعباد. هكذا يبدأ تصوّر جديد عن الإله، سيّد وراع يقود قطيعه. هل هو تراجع عن إله إبراهيم ونوح ؟ هل من أجل أن يكون له شعب يؤمن به، يختار الرب بعض التنازلات، ويبرم صفقة مع هذا الشعب؟

طبعا الصورة التوراتيّة لا تداري ولا تخجل من هكذا تمثّل عن سيّدها، بل بالعكس هي تفاخر بـ " الربّ صاحب الحروب " [سفر الخروج / ف 15].

في قصة موسى الدين يعطي الأولويّة للاجتماعي والسياسي على العقدي التصوّري. بناء الإنسان داخل المجموعة وبناء المجموعة في حركيّتها وتفاعلها مع شرطها، مسائل تعطى المساحة الكبرى من جهد النبيّ ورسالته.

ولكن حتّى نفهم زعامة هذا النبيّ ومقاصد رسالته نحتاج أن نعود في التاريخ إلى الوراء، فقصة هذه المجموعة تبدأ مع إبراهيم، الأب الأوّل لهذه القبائل التي ورثت عنه إلى جانب التوحيد، بداوة الطباع وحبّ الترحال. مميّزات ستتسبب في إعاقة اندماج نسل يعقوب في مصر وذلك برغم الدخول الباهر الذي ضمنه لهم النبي يوسف عليه السلام. والذي يهمنا من تلك الطباع هنا، لا مجرّد التعالي والكبر، وشعور القهر والاستعباد، وإنّما بالأساس رفض القيود والالتزام.

الخيط الذي ينظم الدين ويؤسس له هو الاجتماع الانساني، حقيقة صحبتنا منذ لحظة آدم عليه السلام. فالإدراك الذي تعهّده الدين وراهن عليه في تجربة الاستخلاف، كان النواة والجينة التي حملها هذا الكائن، واحتاجت كي تثبت وتثمر مسارات في الوجود متشعبة.

ما سبق ابراهيم كان البحث عن إعادة ربط هذا الكائن بخالقه وخالق الكون والمتحكّم فيه، { ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا * فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا * يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا * وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا * مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا * وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا * أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا * وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا * وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا * ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا * وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا * لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا * } [سورة نوح:9–20].

إبراهيم، كما مرّ معنا في قصته، دشّن القول في الإله، وسبل التعرّف عليه، وإحلاله المكانة التي يستحقها، لذلك استحق لقب " الخليل ". ولكنّه أيضا، وهذا المهم، ألقى عصا الترحال لمجموعة الرب كي تبحث لها عن ذات أوّلا، وعن وجود اجتماعي ثانيا.

المسار الذي قاد إلى موسى كان مؤلما، والإخوة " نزغ بينهم الشيطان " فما استطاعوا أن يتجاوزوا طباع الرعاة وعقليّة الرحل، لذلك انتهوا عبيدا يسومهم أهل مصر وفرعونها سوء العذاب بعد أن كانت " خزائن الأرض " ملك يمينهم. تلك ستكون بداية الرسالة، " الخروج " بالقوم من أرض الاضطهاد، وعقليّة الاستعباد. ولكنه ليس خروج ترحال وبحث عن الكلأ والماء، وإنّما هو " تيه " من أجل تنقية الجينات وغرس شروط التمدن والتعايش الاجتماعي

في نفوس هذه المجموعة " المختارة ". والاختيار لم يكن، كما فهمه القوم، منحة وتفضيلا، وإنما هو نتيجة تراكم في سياق ما يبنيه الدين في النفوس: محنة الإنسان الحقيقيّة ليست مع ابليس ولا في الرجوع إلى جنّة النعيم، وإنما في معايشة المماثل، والتحرّك وفق الشروط. استطاع موسى عليه السلام كزعيم أن يحيي في نفوس الاتباع الرغبة في الإعمار والتمكين في الأرض، واستطاع كنبيّ أن يثبت للشعب، بالعطايا حينا وبالزواجر حينا آخر، كلّ ما قاله نوح وابراهيم عن الخالق القادر المحب لعباده. لكن يبدو أن طباع البداوة وحبّ الرعاة للتملّك، قادت اليهود بعيدا عن أسوار " المدينة "، وقبول التعايش مع الناس. فالرعاة أبدا أن يسمحوا أن يشاركهم أحد الكلأ والماء... فما بالك بالإله.

مآلات الديانة توشي بالكثير من التفسيرات لكل غوامض المسارات. فاليهودية كما انتهت، خصوصا بعد أن أسلمت أمرها لصهيونية مقيتة تتوسل خطابات الله من أجل صراعات النفوذ والمال، تلك النسخة من دعوة موسى توضّح كثيرا تعثرات الخطى. الكثير من القراءات التي يتحمّل العالم بأسره اليوم تبعاتها كان موسى وأخاه هارون، ومن بعدهما الكثير من الأنبياء، وعيسى بن مريم على رأسهم، قد تحمّلوا جميعا نتائجها.

هل كان " يهوه " بتسامحه وحبه لشعبه قد أمد أحفاد سارة بما يغذّي حبهم لذواتهم ونظرتهم الاستعلائية، أم هي المحن وقد تعاقبت على أبناء يعقوب قد جعلت من تلك الطينة صخرة صلداء ألقيت في مجرى الرسالة.

المسيح عليه السلام حاول أن يخفّف من غلواء ذلك الشعب بتعميده بمياه الحب والتسامح والرحمة، فلم يكن حظه بأفضل من زكرياء وابنه يحيى، ولولا بعض الشياه " الضالة " من ذلك القطيع لما استطاعت رسالة يسوع أن تبلغ الآفاق. محمد صلى الله عليه وسلم كذلك تحمّل الكثير من العنت برغم كل التودد الذي قابلهم به.

قصة موسى عليه السلام تغادر السياق وتكشف بعدا آخر لمسارات الرسالة، إنها محنة الدعوة مع الاتباع؛ كيف يمكن أن يكون حملة الفكرة سبب تعثرها؟

فكبر قارون الذي ﴿ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ ﴾ لم يكن ليبتعد كثيرا عن كبر فرعون، ومكر السامري جاوز تدابير هامان والملأ من قوم فرعون، بل إنّ موسى قد تمنى أن يجد عند أخيه الصلابة التي وجدها عند ذلك الرجل ﴿ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ ﴾. أخ كاد، بقلة بصيرته، وضعف عزيمته، أن يتسبب في إصابة الرسالة في مقتل.

قصة موسى تفضح كبر الأتباع وغرورهم، وتكشف عن مسارات مضللة قد سلكتها بعض القراءات والتنزيلات. القصة كشفت أن عدوّ موسى الأكبر لم يكن كبر فرعون وغروره، وإنما حمق الأتباع وعنادهم، وخجله الأعظم لم يكن أخطاؤه ونشأته المترفة لدى الأعداء وإنما أسئلة الأتباع الفاضحة وأمنياتهم المخجلة.

أعتقد أن اللحظة الزمانية التي نكتب فيها هذه الأسطر (2026) تضع الكثير من النقاط فوق تلك الحروف والكلمات التي خطها موسى عليه السلام بعصاه في بيداء التيه.

التيه كان آخر المعالجات، تنقية الجينات. لكن يبدو أن أثر السامري كان أشد عمقا، والعجل وإن احترق جسده، فإن آثار روحه سكنت قلوب وعقول الأتباع، وخواره لا يزال يقودهم.

حضور موسى بتلك الكثافة في القرآن الكريم، (ذكر اسم سيدنا موسى في القرآن الكريم 136 مرة وذلك من خلال 34 سورة)، ليس فقط محاباة لليهود، وإنما هم الأتباع (أتباع محمد صلى الله عليه وسلم) يُحذّرون أن تتيه بهم الخطى كما تاهت بمن سبقهم، والقائد صلى الله عليه وسلم كذلك تُكشف أمامه العقبات والتحديات.

الرسالة كما يكيدها الأعداء معرضة أن يخذلها الأتباع. فمحنة الرسالة الكبرى مع موسى عليه السلام كان البعد الاجتماعي بامتياز، التعايش والتدافع. وكيف يمكن للفكرة أن تثبت في مواجهة رغبات النفس وإكراهات الواقع.

ربما القراءة التي ستتبناها اليهودية، والنصوص التي ستكتب لاحقا ستقف شاهدة تفضح كيف يختار الإنسان بإصرار أن يكون ﴿ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ﴾ [العاديات:6]. والرسالة من خلال قصة موسى لا تخجل أن تقول ذلك وتكشفه بكل وضوح لهذا النبي الأخير ولأتباعه في المقام الأوّل كي لا يغتر هو بهم وأن لا يرى فيهم تمام الرسالة.

كلمة من أجل تعديل المسار

لماذا اختار المولى عزّ و جلّ مسيحا (مخلّص) بتلك المواصفات؟

شخصيّة سيبقى الجدل حولها إلى نهاية العالم وقيام الساعة. رسول بمواصفات مستفزّة، ومربكة أكثر من الرسالة والأفكار التي جاء بها. ثلاثة سنوات هي كلّ عمر الرسالة ومدة الدعوة. ولكن ثلاثة وثلاثون سنة كانت كافيّة كي تنهي " الكلمة " تجسّدها، و" الروح " رسالتها في العالمين. البداية ورغم كلّ ما أثير حولها لم تلفت انتباه الكثيرين، وإن حاول الاتباع لاحقا أن يتمّوا الإخراج، ويتداركوا غفلة الحاضرين عن المشهد. لكن مسار الدعوة والنهاية المبهرة، ستجعل من التاريخ بكل محامله أداة لإعادة قراءة المسار الذي بدأته مريم عليها السلام، وأتمّه ابنها عيسى. سيرة عجيبة وغير تقليديّة بالمرّة، جاءت في لحظة من الحضارة متقدّمة، وسطوة من رجال الدين متكبّرة. جاء عيسى بن مريم ليضع كلّ ذلك محلّ السؤال والإدانة. الحضارة ليست تحتاج قصورا وجيوشا كي يمتد سلطانها، والدين ليست الشريعة من تحفظ الاتباع وتصلح أخطاءهم. " لا تعودي " كانت كافية كي تصبح " العاهرة " أصدق الاتباع وأقربهم إلى قلبه. درس يقوّض عرش الكهّان ويبطل تجارتهم. النبيّ لا يحتاج كتابا يقرأه على الناس، ولا عصا يهش بها على غنمه. يكفي أن يشبع الشعب ويجدوا الخمرة في أفراحهم كي يعودوا إلى طريق الرب. رسول يحدّث عن " أبيه "، ما عاد الإله قائد حرب، يعشق الدماء ورائحة الشواء. الإله

اليوم " أب " يعطف على أبنائه ويتفهّم خطاياهم ويقبلها. طريق التوبة سهل، اترك ما انت فيه " و اتبعني ". نبيّ بمواصفات طبيب، يحيي النفوس والأرواح قبل الأجساد. نبيّ لا يخجل ولا يخاف من مخالطة الخاطئين. يؤسّس في المجتمع وبين الناس مفهوم التسامح والتقبّل " من كان منكم بلا خطيئة فليرمها بحجر ". أيّ ديانة هذه! وأيّ نبي يتجرأ كي يهدم الناموس! وأيّ رسول يرضى أن تغسل عاهرة رجليه بعطرها! أيكون دين لا تحرسه شريعة؟!

عيسى بن مريم كان في مسار النبوّة استثناء، لذلك القرآن الكريم يقيم ربطا متينا بين آدم وعيسى عليهما السلام، ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ ۖ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ [آل عمران:59]. الأوّل كان جسدا حلّت فيه الروح وعُلّم الأسماء، أمّا الثاني فكان روحا وكلمة تمثّلت في جسد إنسان. الأوّل كان بداية تاريخ الإنسان، أمّا الثاني فـ ﴿ إِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ ﴾ [الزخرف:61].

إنّ الانحراف الخطير الذي أدخله اليهود إلى شريعة النبيّ موسى عليه السلام، وخصوصا غلقهم باب الدين واحتكارهم للإله، كان ولا بد أن يقابل بخطوة حاسمة، ومعالجة جذريّة تعيد للدين انفتاحه على الإنسان مهما كان عرقه، وتبعد الدين عن كلّ سلطة متحكمة في رقاب الناس. الكهّان صيّروا كلمة الربّ سلعة تباع وتشترى (ولا يزالون يفعلون ذلك إلى اليوم، للأسف الشديد)، المعابد أصبحت أبنيّة وأماكن لجمع المكس والتعالي على المستضعفين. والرب صوّرته كتب تجّار الدين ملكا مرعبا، يعشق الانتقام. لذلك لا عجب أن يكون النبيّ المكلّف بالإصلاح " كلمة " متجسّدة، روحا أبطلت كلّ النواميس والقوانين، لحظة ثانية من

الخلق والتنزّل. البشريّة تحتاج أن تعود إلى رشدها. لقد نسي الناس أن بداية الحياة كانت من طين، لذلك المسيح أعاد تمثيل المشهد ﴿ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ [آل عمران:49]. والموت كذلك طارئ في الوجود. المسيح لم يكن يحتاج كلمات كي يصحح العقائد والتصوّرات، اليوم العقائد تُكشف عيانا عبر مشاهد شارك فيها الجميع، والكتاب مجموعة أمثال تُضرب كقرع الطبول، تدك عروش الكهّان وتنسف كلّ ما بنوه من أوهام. تحالف الملوك مع الكهّان كان ولا بد أن ينتهي. السياسة اغتيال للدين، لذلك المسيح كان شديد الوضوح " أعطوا ما لقيصر لقيصر، وما لله لله ".

رسالة موسى عليه السلام، التي كانت بالأساس نصيرة لقضايا الإنسان، وصرخة في وجه الطغيان، انتهت، على يد سدنة المعبد، إلى بناء انسان مشوّه، ومجتمع يقوم على النفاق والخداع. والدين كفّ أن يكون بشارة للعالمين، لذلك احتاج الأمر " معولا " يهدم كلّ ذلك البناء، احتاج نبيّا يجسّد الدين، لا يقوله فقط، نبيّ يعمّد الناس ويطهرهم من كلّ الأدران التي لحقتهم. ذلك فقط كان دور عيسى عليه السلام؛ نقطة في نهاية الفقرة، واستراحة في مسار النبوّة.

المسيح أوقف المسار، فالدين يحتاج أن يهيّئ الناس ويعدّهم كي يستقبلوا " البنّاء "، راع جديد، لا يحمل عصا، وإنما تاجر يحسن أن يقود القوافل في متاهات الصحراء، ﴿ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ ﴾ [الصف:6].

لكن برغم كل ما أسلفنا من القول نشعر أن السؤال يلاحقنا ويستفز راحتنا:

لماذا المسيح؟

هل كان من الضروري أن يكون هناك نبي بكل تلك المواصفات؟

وهل كان ابن مريم مواصلة في مسار النبوّة أم انقطاع فيه؟

هل كانت تلك البدايات المبهرة والمربكة في نفس الوقت، ضرورة استوجبها المسار، أم هي إجراءات تصحيح قادت لها منعرجات خاطئة؟ فالمسيح ينسف كل الحقائق، وكل ما استقر في الوجود من بديهيات، حتى الإنسان ذاته يعاد حوله السؤال، ويعود حيرة الوجود.

هل يكفي " كلمة " أو " نفخة " أن تعيد للوجود توازنه، وللإنسان رشده؟

الأناجيل، ومن بعدها القرآن، تبقى صامتة تقريبا حيال كل تلك الأسئلة. فهي لا تعبا بتشكيك المخالفين، ولا تبالي بحيرة الاتباع، بل ربما تسهم في تعميقها، ليبقى المولد والمنتهى حيرة الجميع، وعندهما يفترقون.

طفل من غير تزاوج، مثل ذلك في عالم الكائنات الأرضية كثير، العلم سيكتشف ذلك لاحقا، بما يبطل تخرّصات الدهريين، وغمزات الحاقدين. لكن يبقى السؤال: لماذا؟ ما الداعي لذلك؟

لماذا هذا النوع من المعجزة؟

لماذا يكابد نبيٌّ بدايات " مخجلة " ونهايات " مخزية " ؟! طبعا في نظر المخالفين.

ولادة في معلف، ونهاية مسمّرا على الأخشاب، صحبة جمعت " شرار القوم " ومن احتقرهم المجتمع. والتابع المؤتمن على الأموال والقوت، كان دليل الأعداء. والغريب أن كل تلك

الأحداث على عظمتها، وكل تلك المحن على قسوتها كانت في زمن قصير للغاية، ثلاث سنوات كانت كافية كي ينتهي العرض دون أن تسدل الستارة.

الولادة يربطها القرآن الكريم بآدم عليه السلام، ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ ۖ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ [آل عمران:59]، والصور التي تستحضر غاية في الجمال والروعة. سورة مريم ترسم مشاهد الولادة بتفاصيلها المبهرة تذكرنا دائما باللحظات الأولى لآدم عليه السلام. القرآن الكريم يتعمّد ذلك الاطناب ليعيد للام وابنها الاعتبار والمكانة التي يستحقانها. والصور كذلك نوع من الإحالة على جوهر الرسالة وبداياتها، أما النهاية، حتى مع القرآن الكريم، ستبقى لغزا إلى نهاية العالم.

هل الجملة قد امتدت بما يكفي لبلوغ المعنى، وارتباك القراءة قد بدأت مؤشراته فكان المسيح علامة انتهاء، تحذير ربما، وتحضير لما هو آت، نقطة على الأرجح للتوقف واسترداد الأنفاس. بكل المقاييس يبقى المسيح كشخص حيرة وبابا مفتوحا على كل القراءات، وكدعوة مجموعة من الأسئلة، والاعتراضات، والإدانات لاتباع الرسالة قبل المخالفين. لذلك هو غريب هذا الناصري، وهؤلاء الأتباع، قائد مدان منذ ولادته، ومحاربون لفظهم المجتمع، ومعركة بالأساس مع الكهنة وحرّاس الشريعة. نبيّ وكأنه جاء ليهدم الناموس ويبطل الشرائع والحدود، أشبه ما يكون بثائر أو خارج عن القانون.

والمسيح لا يحاول التجمّل، أو أن يحافظ على هيبة الوظيفة ونقاء الرسالة، هو حتى لا يبالي بالنتائج وإن تلجلج الأصحاب المقرّبون. ومن أجل امرأة خاطئة كان على استعداد أن يتخلى عن أقرب الأتباع.

حتّى كل تلك القصص المؤسسة لمسار النبوّة؛ كقصة نوح وإبراهيم وموسى عليهم السلام، هو لا يبالي بها، الأمثال والأحجيات، كما أسلفنا، هي البديل، ومنهج التربية.

لا مجالس للوعظ، المسامرات ومجالس العزاء وحتى الأعراس، فرص كافية كي يتعلّم الأتباع الثورة على الناموس والكهنة، حتى يكاشفوا الحقائق، ويلمسوا المعجزات. مع المسيح الرسالة عروض مباشرة، والرب لا يخفي حضوره.

منذ الصبا كان أرق الكهان وحرّاس الهيكل، طفل يحسن المجادلة، ويتقن فن الإحراج. المسيحية ستبذل جهودا مضنية، ومعارك حامية الوطيس من أجل صورة متناسقة لنبي جدير بأن يكون الابن.

الاتباع وقد لبسوا ثياب الكهان، واستظلوا تحت ظل القياصرة، استطاعوا أن يروّضوا ذلك النبي الثائر، ويجمّلوا الصورة كي تناسب الامبراطورية التي تبنت الفكرة وحمت الاتباع من الامتهان، لكن ما حذّر منه المسيح سابقا: « أَعْطُوا مَا لِقَيْصَرَ لِقَيْصَرَ وَمَا لِلَّهِ لِلَّهِ ». وقع التخلي عنه، لتصبح المسيحية سلطة، ونفوذا، وامتيازات.

إن ما أراده المسيح وعاش من أجله كثورة من أجل حماية الرسالة أن تغتالها الملة، والاله أن يسجنه البيت، سيتراجع إلا قليلا لدى اتباع ﴿ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾. القرآن سيمد يدا ملؤها الحب

والتقدير إلى أولئك الذين ﴿ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ ﴾، وسيختار محمد صلى الله عليه وسلم أن يستأمنهم على أولى مشاتل دعوته.

الهجرة إلى الحبشة كأنت أولى الجسور التي أقامها محمد صلى الله عليه وسلم بين الإسلام والمسيحية. فهذا الراعي المحاصر بين جدب المكان وقساوة القلوب كان يعلم جيدا أن رسالته تتجاوز عمارة بيت، وعزة قوم.

الرسالة، وقد كشف المسيح كل أسرارها وردها إلى لحظتها الأولى، ستنهي سفرتها مع راع ليس لعصاه مآرب أخرى، " ابنُ امرأةٍ من قريش كانت تأكل القَديدَ "، لم يكن لها محراب ولا رزق، نبيّ ليس له من الآيات إلا " وحيا " يتلى، وكل وظيفته أنه ﴿ مُذَكِّرٌ ﴾.

هل هي الرسالة تعلن تخليها عن البشر، والنبي يكف أن يكون الوسيط، وسبيل النجاة، أم أن ترتيبات جديدة توشك أن تبدأ، ولحظة فارقة في تاريخ البشرية سيدشنها نبي أعلن عنه المسيح بكل وضوح ﴿ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ ﴾ [الصف:6].

عندما تصبح النبوّة مسؤوليّة الإنسان

إذا كان عيسى عليه السلام قد أوصل مسار النبوّة إلى نقطة بدايته، و أعاد جدل الرسالة إلى لحظة أدم عليه السلام، فماذا كان دور محمد صلى الله عليه و سلّم ؟ وكيف يمكننا اليوم أن نقدّم قراءة تتجاوز المفهوم الضيّق لمصطلح الهيمنة { وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ }؟ قراءة لا تؤسّس للتعالي، ولا تحرّكها الرغبات وتشحنها الاخفاقات. قراءة تنفذ إلى عمق وجوهر تلك " اللبنة " التي أضافها محمد صلى الله عليه وسلّم في البناء و ختم بها المسار.

طبعا ليس من الهيّن أن تحاول مراكمة كلّ وجهات النظر والقراءات التي أسست لخصوصيّات الدعوة المحمديّة، خصوصا وأن أغلبها يصدر عن رؤية للنبوّة ترفض كلّ معقوليّة يمكن أن تكون منطلقا لها. المفارق في النبوّة والمتعالي فيها، كما نزعم، ليس هو شرط ولا مانع لخطة، أو لنقل تدبير أحكمه المولى عزّ وجلّ. تدبير ليس من المعقول أن يحول بيننا وبينه، ويمنعنا أن ندركه وأن نستخرج شروطه وآليّات اشتغاله. النبوّة ظاهرة انسانيّة، صحبت الوجود البشري منذ لحظات إدراكه الأولى، وهي بالتالي متفاعلة مع رقي الإنساني، تحترم شرطه وتشتغل وفقه. ولكن، وهنا يكمن التميّز، هي في صميم فعلها عبارة عن " طفرة " وقفزة في الوعي والإدراك.

النبيّ – و يمكنك أن تبدأ من آدم عليه السلام – شخص من لحم ودم بكل معنى الكلمة، ولكن وضمن خطة المولى، تتحقق فيه " الطفرة " وتنبع من خلاله اشراقات وامكانيّات الوجود اللامحدودة. رسالة النبيّ وسيرته، كلّ يتداخل من أجلّ التأسيس لما ينبغي، أو لنقل أفضل، لما يمكن أن يسير نحوه الوجود الإنساني.

الذي يقع، وذلك بديهي في الوجود، أنّ الطفرة تكافح طويلا كي تجد لها الوسائط والمحامل المناسبة كي تعطي النشأة الأخرى. الأنبياء يتلاحقون، ليس لأنّ السابق يفشل والاتباع ينحرفون. الوجود ذاته ينبني على التجاوز والمخالفة. إذن هم يتلاحقون لأن الواقع والوقائع تطلب المجاوزة وتقود إلى طفرة " متحتّمة ". هل هي هكذا خطة الرب ؟ طبعا لا يمكن المجازفة بتقديم إجابة جازمة، ولكن يمكن مع ذلك أن نزعم أنّه تدبير محكم، ويلائم كائنا أعطي السيادة على كرة من طين سابحة في الفضاء بلا حول لها ولا قوة.

لنعد أدراجنا إلى حبيبنا المصطفى وننظر، على ضوء ما تقدّم، في دعوته، فيم تمثّلت الطفرة التي بشّر بها ؟ البدء سيكون بالإله الذي دعا إليه محمد صلى الله عليه وسلّم. المتدبّر في القرآن الكريم يلاحظ، ولابد، ارتقاء بيّنا في مفهوم " الله "، ونضجا تصوّريا ينتهي إليه القرآن. وعند هذه الخطوة تبدأ معالم الطفرة التي مثلتها دعوة محمد صلى الله عليه وسلم. إله إبراهيم كان " خليلا " يصحب نبيّه في أسفاره، ويحرسه في أهله، ويرسل ملائكته ضيوفا عنده، ومع موسى عليه السلام أصبح القائد والزعيم الذي يحارب عن قبيلته، ثم هو مع عيسى عليه

السلام الأب الرحيم الذي يضم إليه كلّ المرضى والمحتقرين من شعبه ويكرمهم. كلّ هذه التمثّلات، التي لا يخجل القرآن في عرضها، ولا يرى فيها مسّا من جوهر التوحيد ولا طعنا في تعالي المولى عزّ وجلّ، محمد صلى الله عليه وسلّم، ومن خلال كلّ الجدل الذي أثارته السور وهي تترى، تجاوزها، وبيّن عقم العلاقة التي تنبني على البحث في " الذات "، وأكد أنّ العلاقة التي ينبغي أن تقوم بين الإنسان والخالق هي " علاقة الحوار "، والبحث الذي ينبغي أن يكون هو بحث في سبل التواصل وطرق الفهم.

فالله في القرآن هو " المحاور "، لذلك نقول: إنّ التكريم الذي ناله الإنسان من خلال نبوّة محمّد صلى الله عليه وسلّم هو أعظم تكريم وأفضل تشريف، حتّى أنّنا نزعم أنّه يتجاوز الكرامة التي نالها الإنسان في شخص آدم عليه السلام عندما خرّت له الملائكة ساجدين.

هلّ كان محمد مشرّعا، أم مؤسّس عقائد وتصوّرات، أم باني دولة وصاحب جماعة ؟

أعتقد أنّه على ضوء كلّ تلك الإضاءات التي جعلناها حواشي طريقنا، أنّه صلى الله عليه وسلّم تجاوز كلّ ذلك وتعالى عليه. تجاوز لا يتقصّد إلغاء المسار وإنكاره، وتعال لا يقف عند بساطة التفضيل، وإنما هو أشبه بالقطيعة المنهجيّة، عندما يكون اللاحق مؤسسا للمغايرة ونقطة يعرب ما بعدها مبتدأ. القرآن الكريم تضمّن كلّ ما سبق، أعاد تناول كلّ المفاهيم التي جاء بها السابقون من الأنبياء، وقصّ علينا قصص أغلبهم. كان القرآن مكتنز العبارات، جرئ التناول، لم يخف عنّا كلّ الجدل والتجاذبات التي عايشها الأنبياء وتطّور من خلالها مسار

النبوّة. لكن الجديد والمتميّز أن المفاهيم والتصوّرات تصبح من خلال نظم القرآن اشكاليّات تطلب البحث وتحثّ على القراءة، وأسئلة تقود إلى المراجعة وتعميق الحوار.

القرآن الكريم كتاب، أو لنقل " مقالة في الطريقة "، طريقة التفكير والتأسيس والبناء. هو المنهج يطلب ويؤسس. اليوم ما عادت المفاهيم والتصوّرات مطلب " السماء " ولا خطة رب العباد. البشر أُعطوا جميع ما يحتاجونه من الأفكار والتوضيحات، والأنبياء أخذوا بأيديهم إلى مراحل متقدمة في مسار الوجود. اليوم لا رفيق، ولا نبيّ يمسك عصا يقود بها القطيع. محمد صلى الله عليه و سلّم أعلنها صراحة " لا نبيّ بعدي ". كلّ الأشجار اليوم مباحة ولكن المسؤوليّة كاملة، فلا ينبغي للإنسان أن ينتظر من ربّه { كلمات } كي يتوب عليه. الجنّة، الإنسان هو من يزرعها والجحيم هو من يوقده. اليوم مع هذا الكتاب المبين اطلقت جميع حواس الانسان كي ينظر ويتدبّر، وكرّم عقله كي يقرأ ويتمعّن. محمّد صلى الله عليه وسلّم ما جاء كي يقود الناس نحو حظيرة الرب، وإنّما علّمهم كيف يوقدوا مصباح عقولهم كي يسلكوا طريق خالقهم.

لكن وبعيدا عن الدعوة والمضمون، يمكننا كذلك أن نحاول منظورا جديدا في مقاربة سيرة هذا الرسول الأكرم، وذلك من خلال معالجة سوسيولوجية تتوسل اليومي المعاش لإدراك التصوّر المراد إحلاله. فمكابدة الفكرة ليس يدرك غورها ولا منعرجاتها إلا بملاحقة التفاصيل اليومية للتجربة منذ بداياتها.

والبدايات في سيرة محمد بن عبد الله، برغم كل الإرباكات التي أوقعنا فيها الحب المفرط والرغبة في المشابهة، لم تكن باهرة بذلك المعنى الذي لمسناه في سيرة عيسى أو موسى عليهما السلام.

محمد صلى الله عليه وسلم يعتلي خشبة المسرح في هدوء، ويختار من الأدوار ذاك الذي يجسّد القيم الإنسانية، ويعلي من شأن البعد الأخلاقي في بناء المكانة الاجتماعية.

شاب بغير جاه ولا سلطان يفوز بقلب سيدة قريش الأولى، وحكمة ورصانة منحته كل ما حرمته منه الأقدار؛ دفء العائلة واحترام العشيرة.

الراعي ثم التاجر كان يعبر القبيلة في صمت وهدوء، كما تنساب المياه في جوف الصحراء تشق طرقا لا يراها أحد، ولا تزعج راحة القوم، ولكنها بإصرار تعيد تشكيل المكان.

الراعي لم يكن حديث الأقران إلا كطفل حيي يخجل أن يتعرّى كما الأتراب، أو أن تلهيه الأعراس.

ما قيل حول فترة الرضاعة عند حليمة السعدية لن نخوض فيه لكل تلك الأشواك التي أفسدت أزهارا لم نحسن رعايتها، ومماحكات لم نترفّع عنها.

التاجر كذلك كان استجابة للواقع دون طموحات كبيرة، ولا حكايات مبهرة، وهل يطمح في المزيد من ظفر بقلب تنافس عليه كبار تجّار مكة.

هل انتظر محمد كل تلك المدة (40 سنة) حتى يكتشف أنه مكلّف بمهمة خطرة، وهل بقي الأهل وكل القبيلة في غفلة عن هذا الصادق الأمين، حتى كانت تلك الصرخة المدوية التي لُعن من أجلها العم؟

الذي نطمئن إليه، وتقودنا إليه النصوص الثابتة والمقاصد الراجحة، أنّ محمدا صلى الله عليه وسلم ما كانت الزعامة لتشغله، ولا توقع القوم منه تلك الهبّة، وما ينبغي لهم ذلك. بل إني أزعم أن ما يروج بيننا نحن اليوم من أخبار حول المولد وارهاصات النبوّة لو كانت كما نحكيها ونزايد عليها لما شهدنا تلك البهتة التي حلّت بالقوم، وربما لم يكونوا ليحكّموه في حجر البيت. وذلك فيما نحسب روعة الشخص وأسمى مقاصد الرسالة. نبيّ كلّ خصيصته إنسانيته، وفطرة لم تخالطها شائبة من كبر واستعلاء.

هو الإنسان في تصالحه مع بشريته، وسماحته في انتمائه إلى واقعه ما تريده الرسالة بعد تلك الطفرة والفزعة التي مثّلها المسيح عليه السلام. هنا نبيّ بغير مقدّمات، يعتلي الخشبة بهدوء وسكينة، دون أن يربك تسلسل الأحداث، لا أدوار قيادية، ولا مهام تحريرية، هو ينساب مع الدعوة يكابدها تحمّلا وتنزيلا.

لكي نضع هذه الشخصية في اطارها العام، ونمهّد السبيل لمسارات في القراءة تتجاوز كل تلك المبالغات والإسقاطات اللاحقة، يجب أن نعيد رسم المشهد كما تشكّل لا بما آلت إليه الصورة. فالصبي، والراعي، والتاجر، والأب، والزوج، بعبارة أخرى محمد ما قبل الغار لا يُفهم، ولا ينبغي أن نرسمه من خلال محمد النبي والرسول، نخطئ إذ نفعل ذلك.

نبوة محمد لم تكن شخصية تحيل على دعوة ورسالة وإنما العكس. الإسلام يضع الرسالة أساسا للدعوة وتُبنى شخصية الرسول ضمن مقاصدها وآليات اشتغالها. لذلك لم يحتج هذا النبي دخولا باهرا، ولا طفولة عجائبية، ولا شخصية استثنائية.

هو الإنسان اليوم يقف في مواجهة مصيره بمفرده، لن يكون هناك مختارين يقودون الخطى. النبوة لن تعود اصطفاء، والرسالة لن تحتاج صحفا وكتابا. القرآن الكريم قالها صراحة ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ [المائدة:3]. محمد صلى الله عليه وسلم بيّن من خلال سيرته وأقواله، والقرآن الكريم دعّم وأصّل كل ذلك، أن حقيقة النبوة مسؤولية يتحملها الإنسان، وقضية يعيش من أجلها.

الخاتمة

ويبقى السؤال وقود الرسالة

يبدو أن " الحفر " في أي مجال لا يمنح إلا المزيد من الأسئلة، وربما الكثير من الحيرة والارتباك. فكم غصنا في أعماق الأرض، واقتحمنا مجال كهوف عميقة نرتجي أن نقول في التاريخ قول الصدق، فانقلب البصر ﴿ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴾ [الملك:4]، ليبقى الجدل والتجاذب ميزة القول ... وروعته.

نعم تلك كانت الثمرة، وذلك هو الرجاء؛ نظر لا ينتهي، واختلاف يجمع على حتمية تقليب الفكرة، وعدم الركون إلى يقين في هذا الوجود الذي نكابد.

رحلة الرسالة، كما كشفتها حفرياتنا، بدأت بسؤال، وتشكيك حول هذا الكائن كيف يُعطى مقاليد الأمور في الأرض وهو من طينتها الآسنة ! وكيف يُمنح مطلق الإرادة ولم يثبت أمام أول اختبار؛ شجرة ليس لها أي تدبير ! بل أكثر من ذلك تختفي السيرة، وتُمحى الآثار وكأن الرسالة لا يعنيها من أمر هذا الجد الأكبر إلا ذلك الدخول الباهر والمكانة التي أُعطيها، والارباك الذي أحدثه في العالمين.

فآدم لم يكن سيرة في القرآن، وقصته لا تسرد حكاية فرد، وإنما هو حفل ترسيم وإعلان وجود. هكذا يبدأ القص في القرآن الكريم، وتلك ستكون خصيصته، أسئلة لا تنتهي، حتى أنه لمّا

استعجل محمد صلى الله عليه وسلم الجواب عن أسئلة الخصوم والمتحدين عوتب بالتأخير، وقصص ألغاز تكشف كيف يستمتع النص بحيرة الأتباع وارتباك الأغيار؛ كيف يقتل الصالح طفلا ويصلح جدار الأشرار !

قصص القرآن تهدم كل ما تعوده الإنسان ويطلبه، لا يقين فيما مضى، لست مطالبا أن تعلم تفاصيل الأحداث، التعلّق طريق الاصنام، والأجداد آلهة قد يصيرون. الحاضر هو المسؤولية، والماضي حياة الآخرين وتجربتهم. القوانين التي تترسخ وتثبت هي ما يجب أن نعلم ونحترم كي نَسلم ونُسلم.

هو الإسلام بكل معانيه، وليس يُدرك بقصص تحكي الأساطير، وتُعلي قامات الرجال وتغفل عن المقاصد والأفكار.

حفرياتنا في مسار الرسالة علّمتنا كيف يُرسم الرجال أفكارا، والسير تجارب، وكيف لا يخجل النبي أن يقول ﴿ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ ﴾ [طه:52]، وكيف تسدل الستارة أمام كهف مغلق، ونبي يصرخ مسمّرا على الألواح " إِلَهِي، إِلَهِي، لِمَاذَا تَرَكْتَنِي ".

القص القرآني لم يكن استراحة الوحي، ولا مناكفة الواقع بآخر، ترغيبا وترهيبا، وإنما هي الآفاق تفتح، والمسؤولية تعرض كاملة.

طلب إبليس سيستجاب له برغم كل التهديد والوقاحة التي فيه، واستعطاف الأب من أجل أبنه سيرد برغم كل الصبر والثبات الذي كان عليه. وحوار الشاب مع أبيه أكثر أهمية من نار تعجز أن تحرقه، أو اسم الابن الذي ﴿ تَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴾ [الصافات:103].

القصص القرآني لا يحابي شهوة السمّار، ولا يبالي إن تداخلت الأزمان والأسماء، هو يتبع خطة الرسالة، وضمن آليات الوحي الكثيرة يرد كي يبني ذواتا لا تهاب طول الترحال، ومشقة الأسفار.

كذلك من بين المواضيع المهمة التي يثيرها القصص القرآني ويحيل عليها، بل لعلّنا لا نبالغ إن قلنا أنها المسألة الأكثر أهمية، والأشد تعقيد في قراءة النص القرآني، مسألة تاريخية الوحي. مسألة ربما طرحها هنا يكشف جملة الآفاق والإشكاليات التي نحاول أن نحيل عليها، ونعتبر بحثنا مساهمة في محاذاتها. طبعا في نهاية مشوار ممتع مع قصص أولئك الرجال ليس من اللائق أن نختتم القول بإحالة على كل تلك المعارك التي لا يزال صداها يتردد إلى يومنا هذا، معارك تستنزف الطاقات، وتربك كل محاولة لتجاوز حالة العجز والخذلان التي تتسم بها علاقتنا بديننا.

في تصورنا القصص القرآني كان إشارات ذكية وعميقة لما يرتجيه الوحي من واقعه، والأهم لما يبنيه من مسارات التفاعل والمشاركة.

منذ آدم عليه السلام، حتى وهو لا يزال يتقلّب في طينته، لم نر الوحي خارج اللحظة، ولا مترفعا عنها، وهكذا استمرت الملحمة مع كل الأنبياء، حتّى خوارقه وارباكاته كانت تنساب كمشاهد طبيعية جدا ضمن سياق الأحداث. طبعا لسنا نقصد بـ " طبيعية جدا " أنها من نوع المقدور عليه، وإنما أردنا القول أن السياق يضعها ضمن كل المشهد في سلاسة وانسيابية

فتبدو برغم كل الزخم والعجائبية التي تتأسس عليها، تبدو وكأنها من المشاهد الضرورية التي تستدعيها الوقائع. كشتاء أفرطت فيه الأعاصير والأمطار بعد صيف حارق.

روعة الوحي، وتحديه الأكبر أنه يقدّم نفسه كتجربة هي من صميم اللحظة ومتطلباتها. لواحق التجربة، وقراءات الأتباع، ومبالغات الأحفاد هي التي سترفع الأسوار عاليا، وتضيف كل تلك الألوان البرّاقة حتّى لكأنّ الوحي وكل التجربة مسألة من خارج الزمان والمكان. وتصبح كل تلك الصراعات والتجاذبات التي يعيشها النبيّ مع قومه، بل وفي كثير من الأحيان، السيرة والحياة اليومية، معجزات وخوارق تصادم الواقع وتتحداه ناسفة كل شروطه، ملغية عن الوحي والدين عموما كل معقولية.

ويتراكم كل ذلك ليصبح الدين بالضرورة شيئا مضافا على الواقع، والنبيّ جنسا خاصا من البشر تجب له من الصفات والشروط ما ضبطته كتب الكلام و " الدفاع عن العقيدة ".

نحن نضحي بالرسول من أجل فهمنا وتوقعاتنا من الرسالة، وبالواقع من أجل مدن فاضلة لم توجد إلا في كتب الرقائق.

أغلب ما يكتب اليوم حول القصص القرآني بحوث في حقائق التاريخ، وفي أفضل الأحيان وعظيات ومسكنات نجمّل بها واقعا مأزوما، وتاريخا مستلبا.

لماذا نخاف أن يكون الوحي ضمن التاريخ، والنص ملتحما بسياقات القول وشروطه ؟!

لماذا لا نريد أن نفهم من التعالي إلا المفارقة والمغايرة الكلية ؟! وندين ونلعن و" نسلخ " كل من يقرأ الوحي بعيون بشرية، ومقاصد ظرفية ؟!

لماذا ندين كل الرغبات، ولا نرى في القلب إلا مضغة شيطان، ومرتع الأهواء ؟!

ليست الغرائز ما تدينه الأحكام، ولا الواقع ما يرفضه الدين وتخاصمه النصوص.

القصص القرآني يعلمنا كيف يحترم الوحي واقعه، ويعاركه بكل حب ومسؤولية. وكيف يبني الرجال قامات الأتباع، و﴿ بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ ﴾ [إبراهيم:37]، ينشئ القائد أمة ويعلي حضارة.

الرسالة دعوة، وحلم، وغضبة رجال صادقين، وهي قبل كل ذلك نبراس من تلك النفخة التي حصّن بها المولى عز وجل الإنسان منذ وطئت قدماه هذه الأرض، طبعا " إلَّا مَن أبَى".

نسأل الله أن لا نكون ممن أبى، وأن تكون خطانا على نهج النبوّة، وأن نعيش الرسالة بصدق ومسؤولية خدمة لقضايا الإنسان.

الفهرس